كمال مظهر

قلما وجدت نفسي في حرج من أمري كما أجدها اليوم: فالرجل الذي نحتفي ونحتفل به دوحة راسخة الجذور في منابت الفضيلة أخرجت في الضوء فروعاً سامقةً تجتليها العيون على بعد يجيئ فيه نظر المتأمل فيختل لديه تمييز زهرها من ثمرها ويشتبكُ عليه نورها بنوارها، لكن الناظر غانم على علات الأحوال، فأيّاً كان نصيبه من رفد الدوحة ما خلَتْ يده عن حظ مستأنسٍ بالنار في ليلة مقرورة لعلّه يأتي منها بقبس أو يجد على النار هدى. ولقد أمدّتني صحبته الحفيّة الثرية بمفاتح لمغاليق كنوزه ورموزه فعلى مدى استطالة معايشته ومعاشرته وبمقدار التغلغل في تجوله وشئونه تنفرج زاوية منصته للبصر والبصيرة حتى إذا استيقن من تمام انكشاف ضميره أطلقت نفسه من عقد الاحتجاب فسالت في الأسماع وذابت في الأعماق إلى حيث تستقر عبر القلم والقرطاس في الوعي الظاهر والباطن لعامة قرائه ذخراً مستوفيا لحسن التواصل حريصا على أمانة التبليغ ~~مستو~~ مستزيداً في ضخّ العطاء ممتنعاً من هوى التأويل، وتلك أشراط القيمومة على الريادة في محشر الاستنباط والاستكناه من مصابيح النور.

ما سألته قط عما إذا كان تفرغه للتأريخ من باب الاختيار أم من الصدف، فالتاريخ حدث وتطور وتطلّع، فما كان منه حدثاً فقد سهل أمره لدخوله في باب الرواية وأقصى حظها في مراتب الاعتبار بعدُها عن التلفيق ويتداعى منه معكوسه الوبيل وهو التضليل

الذى قد يعيش فاشياً فى الافكار والارواح آلاف السنين. والبشرية كلها تتجرع غصص الحدث المضلّل الى يومها هذا، لا علاج لها من آثارها ولا أثر لوجود العلاج مانع غصص الحدث الا ان يكون استهلاك المرض لنفسه هو العلاج. فما أجلّ الخطب وأقسى الكارثة فى بلوى تمخضت بها الانسانية نفسُها وهى بؤرة الضوء الوحيدة فى الطبيعة كلِّها، ولا انتهاء من هذه المناحة الا بالتوارى منها الى غرفة راحة.. وهل من راحة..؟ ولا ادرى بكم فى الحلقات المفرغة للحدث، ماشُكَّ منها وما ساء وما طاب، وكم منها نفخ النفس الامارة أو تألّبَ الشرَّ المبيَّتَ من متربص: فرُبَّ مخدوعٍ فَتَنَ شعوبا ورُبَّ شعوب أغرتْ بنفسها مخدوعا! أم كان الصنم يتكلّفُ النطق ليضلل؟ فيعبدوه؟

اما التطور التأريخى الذى هو التطور الاجتماعى نفسُهُ فانه خليق ان يستقطب آراءً متباينة فى سبب حدوثه ولكن يمكن الخلاص من مجاهله بالرجوع الى المزايا التى تفصل الانسان عن البهيمة من حيث انه وحده فى جميع الخلق قطع مراحل فى سلم التنامى الاجتماعى فانتقل من بدائية حياة الكهف والغابة الى ريادة الفضاء، وتلك بديهية لا تحتمل المناقشة وأظهر خلّةٍ إتسم بها البشر فارقةٌ بينه وبين الاحياء هى العقل وقد خرج به عن حكم الغريزة المكرَّرة لنفسها ابد الدهر الى مراقى الاستدلال وتركيب الصور والحوائج فى ادامة الحياة ومحاولة البقاء، بانتحاءٍ مطرد الى تحسين الوسائل وابتداع الحيل. وكان فى حكم

لطبيعة الاشياء ان يستجيب حتى الى طموح العقل فيعتدل شكلا وقواما ويزداد قدرة في توفير القوت ورد العادية وتوسع الادراك فحقق معجزتين اولاهما النطق من حيث الاهمية فقد عجزت الهمهمة والبغام والزقزقة عن تبليغ ارهاصات العقل، وكانت الثانية تقابل الابهام مع الاصابع الاربعة الأخرى في اليدين خلال مدة تحسب بمئات الوف السنين فلولاه لتعذر ايلاج الخيط في سم الخياط أو الامساك بالسهم في الرماية وتضاعف الجهد المبذول في اقامة حائط عشرات المرات ولزم فيها اليوم الواحد شهر وشهران. انك اذا حذفت من أطوار البشر هذا التقابل بين الاصابع قلبت جلّ اختراعاته الرائعة فخاخاً لتعطيل الفطنة وشراكاً لتقييد فاعليته فلا تستطيع يد ماهرة ان تمتد الى اي جهاز ميكانيكي بغية تصليحه أو تشغيله. فلا مهرب لعاقل من حتمية رد التطور التاريخي الى فاعلية الانسان بكل قابلياته الرائعة والمروعة فهو نفسه التاريخ والاجتماع والعلم والجهل والحرب والسلم والقاتل والمقتول بافانين في صنع الخير وبديع الخيال وجمال البراعة اشكالا والوانا يجاوز فيها استطاعة الملائكة وقد يردّ نفسه اسفل سافلين طبقات وطبقات تحت قعر الجحيم؛ عجبي من مخلوق منتقض على نفسه هو المثل الاعلى فيما ابدع صانع المعجزات.

والتطلع هو استشفاف الغد على سبيل الترجيح من دواعي الواقع الراهن مضافاً اليه على سبيل الاحتمال، ظهور أمور كانت كامنة أو حدوثها من ممكنات كانت غير متوقعة. وليس لأحد ان ينتظر من غد تصديق موحيات اليوم باكثر من تصديق اليوم لموحيات أمس..

كل هذا الذي قلته وما تجنبت الخوض فيه من حيثيات التأريخ محسوب حسابه وموزون نصابه في عيار المنطق الحي الذي يقيس به كمال نظر نشاط الانسان فهو يكتشف وجه الصواب في روايتها بزيادة التنبش في مصادرها للاختيار أشكلها بروح عصر الحدث وأجراها مع السلائق وأبعدها عن عقد التكلف. ثم هو يترك منزعها في شد القوس تأهبا منه لقبول اضعف الاحتمالات اذا ثبت على وجه من الوجوه انها كانت ضياء التأريخ برغم التأريخ كأن يكون ملك مهووس بالحمام ترك جيشه للضياع ريثما يشبع رغبته في تمليس جناح أو نتف ريشة ناتئة، وقد علمنا ان نيرون كان يعزف على آلة موسيقية وينظم مكسور القريض وهو منشرح بالتفرج على حريق روما

لكن مظهر مؤرخ يشرح لك الماضي كلاً مترابطا يتنفس ويختلج ولا يتناوله كما يفعل الطبيب بتشريح جثة او يفعل القصاب بخروف مذبوح، فلا الجثة الهامدة هي الرجل الذي عرفناه يُطوّعُ العصيّ في ادارة الحياة ولا الخروف هو هذه الأوصال المقطعة في فترينة البيع والشراء فلقد كان يمشي ويثغو ويعلف. كذلك كان التأريخ في اوانه يتحرك غير مؤطّر بسياج من العقلانية الفلسفية أقامها حوله نابغة مشغوف اللب بترتيب المقدمات والنتائج على ورق أملس، فورب الكعبة لأنه تكوين البشرية هي هذا الخليط المتراكم من مخلفات العصور يأخذ بعضه بخناق بعض ويسطو فيه ~~الحا~~ الجار على جاره ويصنع متشاكلها جُملاً خالية من الهدف اقرب الى التوقع من انتظام الصفوف وتناسق المجهود وتناغم الجُمل في الأسماع والتنغيم بزيادة حكيم ينثر درره من فوق منبر خطابة

ان المؤرخ لحال مظهر الفذ نفسه من قبضة الاحكام المسبقة والقواعد المقولبة والحتمية النابعة من مصدر متعين بالذات واهداء ضميره الى نشدان الحقيقة مهما تكن مرة، فلا أمل في شفاء المريض بانكار علته ولا مفعول لدواء أملاه التحيز. واستحالة صدق مذهب فلسفي او سياسي في مآل البشر الا اذا قام تام التفهم لطبيعة البشر ومسايراً لمدى استيعابه ومقبولاً في مزاجه وغير متكلّف في فرض المتعذر عليه: أما ان يتم تطويعه بالسوط في أداء طقوس الدروشة المفروضة تدليلا على صحة المذهب في توفقاته فذلك بحد ذاته برهان افلاس المذهب من كل وجه فقد كفاه بؤساً وعاراً ان يزهو بشهادة تزكية من أنصاف نيام تم تحنيطهم وتأبينهم يحركون بين اشداقهم ألسنة ببغاوات.. واني لأعوذ برب الفلق والنجم ذي الألق ان يصيب رذاذ من الريب فيما أقول مواطئ اقدام ناس يشع من ايديهم بيضاء من غير سوء، نور المعرفة الكاشفة والثقافة الطاهرة والفن البديع والامل الكبير فانهم بناة الحياة الخليقة بالانسان وجنود الحق في دحر الباطل وناشر الاضاءة اذا ادلهمّ الليل البهيم. ولا تثريب عليهم اذا اوقدوا في الظلام شمعة فاشتعل بها شرير التمني ناراً يحرق بها بيدراً او فكّ عبقري سرّ الذرة فوضع على البشر بابا يفضي منه الى ما وراء وهم الواهم في الارض وفي الفضاء فيحتكره من لا يؤتمن على وديعة فلا مهرب لحد هذه الساعة من مخاطر الكشوف العلمية باستعمالها في الهدم والجريمة وهل ذنب سكين المطبخ وسيف المدافعة من احتمال ارتداد حدّهما على الساعي؟ وما ظنكم باحتمالات الشطط في استعمال الادوية بالجهل أو سوء القصد؟ فالمخترعون المكتشفون العباقرة من اي دين وجنس كانوا هم في واقع الحال وكانوا في ماضي الاحقاب زيت القناديل وتيار الكهرباء ونور الباصر والبصيرة لقوم يعقلون.

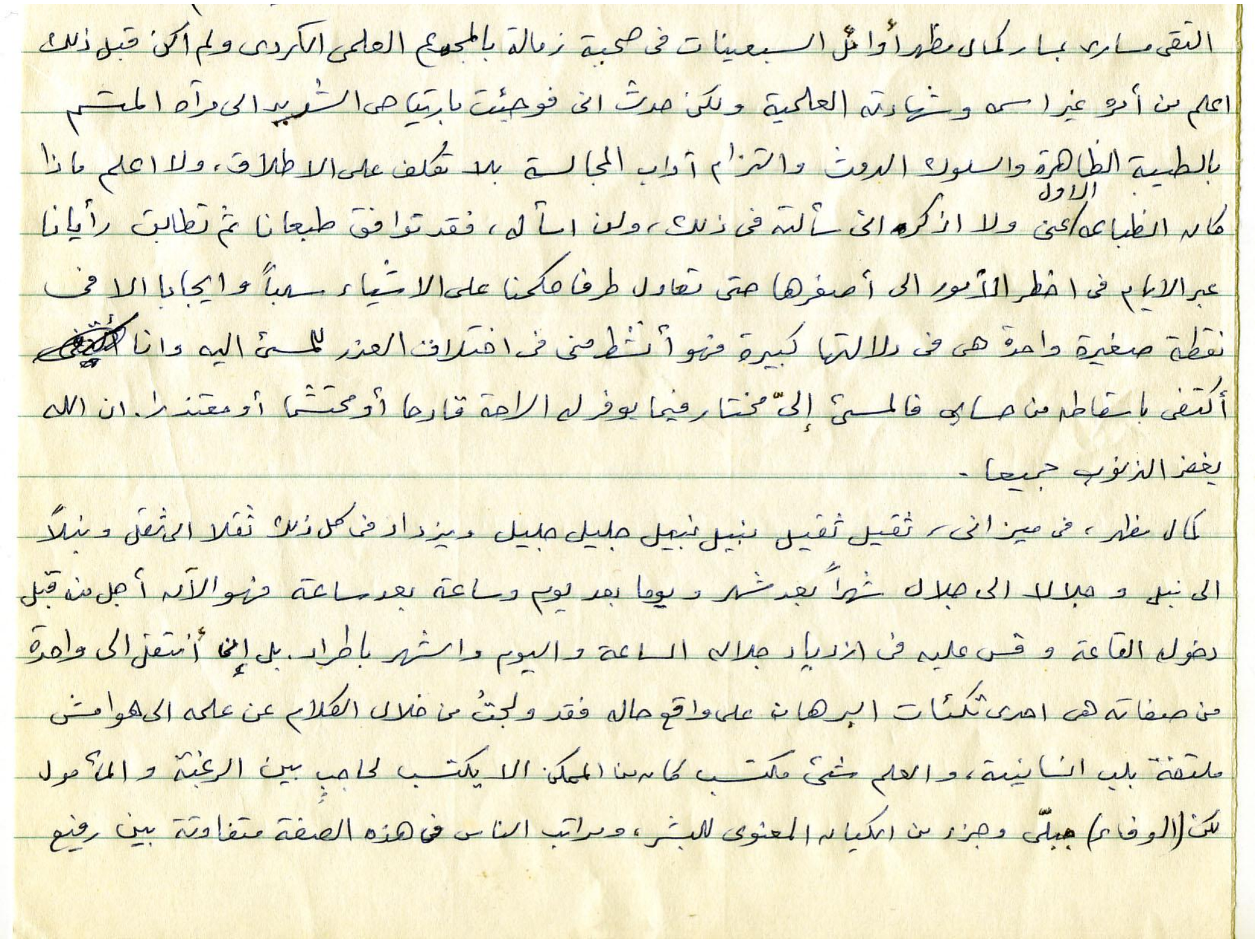

التقى مساري بمسار كمال مظهر أوائل السبعينات في صحبة زمالة بالمجمع العلمي الكردي ولم أكن قبل ذلك أعلم من أمره غير اسمه وشهرته العلمية ولكن حدث أني فوجئت بارتياحي الشديد الى مرآه المتسم بالطيبة الظاهرة والسلوك الدمث والتزام آداب المجالسة بلا تكلف على الاطلاق، ولا أعلم ماذا كان الانطباع الاول عني ولا أذكر أني سألته في ذلك، ولن أسأله، فقد توافق طبعانا ثم تطابق رأيانا عبر الايام في أخطر الأمور الى أصغرها حتى تعادل طرفا حكمنا على الاشياء سلباً وايجاباً الا في نقطة صغيرة واحدة هي في دلالتها كبيرة فهو أشطّ مني في اشتراط العذر للمسيء اليه وأنا أكتفي باستعطاف من جانبي فالمسيء إليّ مختار فيما يوفر له الراحة قادحا أو محتشما أو معتذرا. ان الله يغفر الذنوب جميعا.

كمال مظهر، في ميزاني، ثقيل ثقيل نبيل نبيل جليل جليل ويزداد في كل ذلك ثقلا الى ثقل ونبلا الى نبل وجلالا الى جلال شهراً بعد شهر ويوما بعد يوم وساعة بعد ساعة فهو الآن أجل منه قبل دخول القاعة وقس عليه في ازدياد جلاله الساعة واليوم والشهر باطراد. بل إنما أنتقل الى واحدة من صفاته هي احدى تكئات البرهان على واقع حاله فقد ولجتُ من خلال الكلام عن علمه الى هوامش ملتصقة بلب الانسانية، والعلم شيء مكتسب كما من الممكن الا يكتسب لحاجب بين الرغبة والمأمول لكن (الوفاء) جبلّي وجزء من الكيان المعنوي للبشر، ومراتب الناس في هذه الصفة متفاوتة بين رفيع

ووسيط وهابط وفاقد، فالذي أراه في وفاء كمال مظهر حالة اتحاد وحلول بين صفة وموصوف لا انفكاك بينهما، فلو تكلف ضد طبعه باستدباره الوفاء لغاية في نفس يعقوب لوجد نفسه يستدير ليتبع الوفاء الى عدو مستقتل سلّم عليه بحرارة منذ سنين مرة واحدة، فأراه في هذا الباب تلميذاً عملاقاً لابي ذر الغفاري في قوله المشهور لشخص مسّه بكلام جارح: ياهذا لاتفرق ودع للصلح موضعاً فأنّا لانكافئ من عصى الله فينا بأكثر من ان نطيع الله فيه! الا أن هذا الذي اشرت اليه في خفض جناح الذل رحمة حين يكون شخص مسيءٌ اليه، ينقلب الى جهاد المستميت اذا أسيء في الغياب الى شخص يعرفه عن قرب أو أهينت قيمة يقدسها في اساسيات عقيدته او تشوهت في حضوره احداث ومواقف بكلام المستعرضين فهو لايهادن في هذه الكبائر حتى يثوب المكابر الى سواء السبيل. وهو في هذا النهج من السلوك حدّيّ وجذريّ ومتناه الى يقين لايعاد فيه النظر رغم ما في الثبات عليه من كلفة باهظة تنوء بها طاقة الاحتمال وتُغري بشئ من مسامحة الذات في إغماض النظر. ولكني ادرك فيه شعور الراحة النفسية و الرضا عن الذات بالثبات على المعاناة النبيلة فهو يكافئ نفسه بنفسه في مقاضاة هو الشاهد و المدعي والمدعى عليه والحكم والمحكّم ولا أرى محكمة بلغت معدلة كمال مظهر في دعوى تتأديه أجرة عن كل صفة من الصفات الحسنى التي انتحلها مجاهداً في احقاق الحق وليس بعد الحق إلّا الضلال. ولكن ذلك بداية هينة في مشوار الوفاء عند كمال!

ان صلبة يمارس فيها كمال فروض الوفاء، فسيحة الابعاد عميقة القرارات عالية الآفاق فهو اذ يقدح ذهنه بالتحديق في القيم المقدسة تنزع روحه بجرأة لاهبة الى توالى البراهين على اصالة القدسية في نسيج الوجود لا على أنها اختلاق البشر في شهوياته العاطفية أو تسيباته الجامحة وكفى لذلك ان تكون لمحة البصر شهقة النفس حاوية من المعجزات ما يعجز بها في منطق العقل عن صنو الصدفة أو توافق الاحوال في غياب مطلق الحكمة أعانت وليدا على مص الحليب لحظة خروجه من رحم أمه وتلك ظاهرة في سطوع معجزة الحياة سبقها منذ مليارات السنين تسرّب الحياة الى المادة الميتة مستبطنة في أقوى الاحتمال كل التطور اللاحق في الكم والكيف على سبيل الحتم الذي لم يكن له بديل.. مليارات الاسباب المتطاحنة رست على معادلات بدت منحازة لدوام الحياة رغم قسوة الطبيعة الهوجاء، فلا غرابة في توقف كمال نظره عن الانسياق الى راحة الانكار لبدائع الحياة وروائعها فهو اذ كان لا يسلّم بتسبيب حادثة عرضية لم يستكمل نصاب الاقناع فلا ينتظر منه قبول انعدام السبب في وجود خلق وروعة تتجاوز جهة الابداع كثيرا كل المسببات لجميع ما فعله الانسان منذ تكلفه لحين هذه اللحظة ولتذهب ثورة فرنسا والبلشفية ومذبحة قصر النهاية بجنباتها الى حيث ألقت.. فماذا كرامة الاسباب لخواتيم اهدرت القيم الانسانية لعشرات السنين؟ وهل يصمد قبح ركام الجنون السافر الى جانب فراشة تلمع نقشة جناحيها في شمس الربيع؟

وينداح وفاء كمال على وجه البسيطة فيرحم العجماوات ويكف عنها أذاه ويعشق العشب والزهر والشجر في حنانه يثير غيرة الجنس الآخر ثم يتمادى حتى يشمل كتبه وقراطيسه وأقلامه بالعناية والرعاية وبزيادة حب تملكها في قائمة الاحياء.. ويقدس كتبا تجدّه في التاريخ بالخبر المنصف لاسيما اذا كان الأنصاف يزكّي

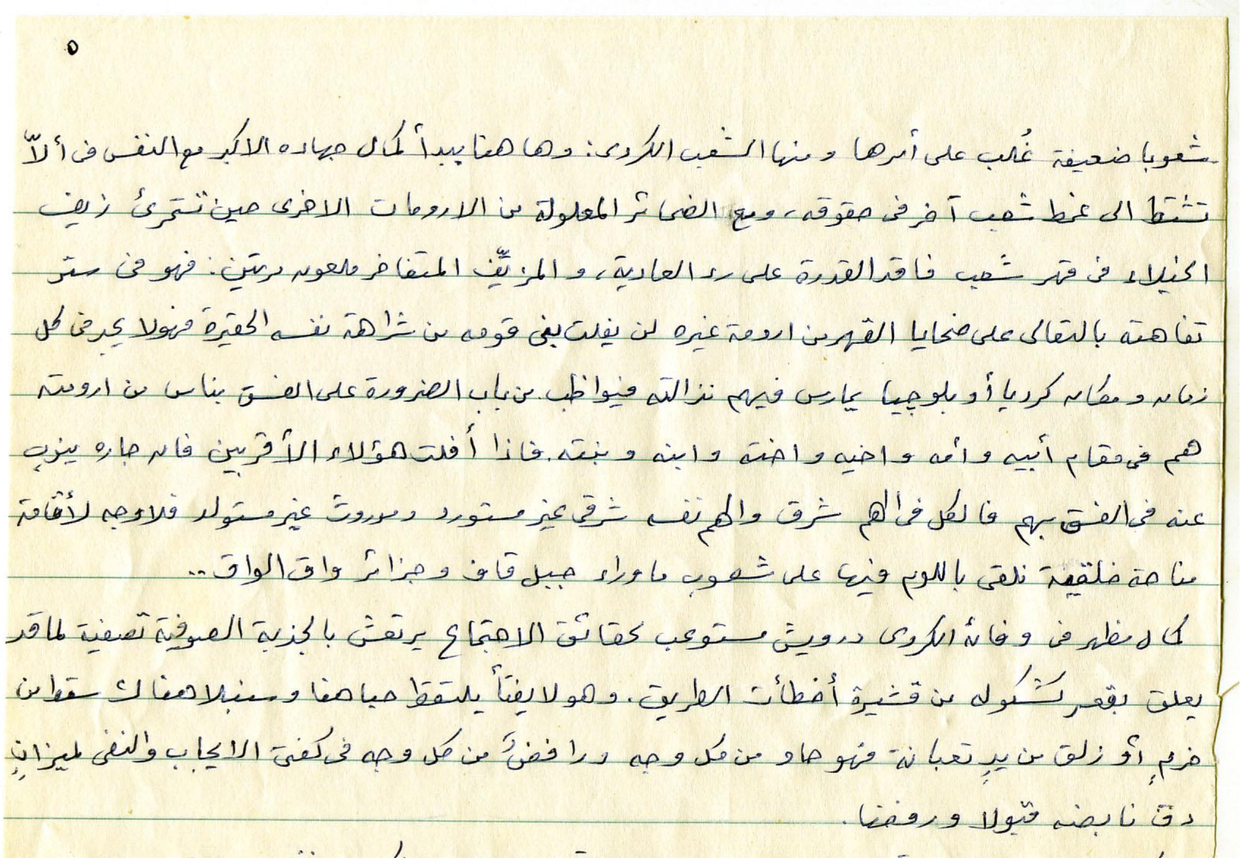

٥

شعوبا ضعيفة غُلب على أمرها ومنها الشعب الكردي: وها هنا يبدأ كمال جهاده الاكبر مع النفس في ألّا تنشط الى غمط شعب آخر في حقوقه، ومع الضمائر المعلولة من الارومات الاخرى حين تستمرئ زيف الكبرياء في قهر شعب فاقد القدرة على رد العادية، والمزيّف المتفاخر بالعوم برتين: فهو في ستر تفاهته بالتعالي على ضحايا القهر من ارومة غيره لن يفلت بغي قومه من شراهة نفسه الحقيرة فهو لا يجد في كل زمانه ومكانه كرديا أو بلوجيا يمارس فيهم نزالته فيواظب من باب الضرورة على الفسق بناس من ارومته هم في مقام أبيه وأمه وأخيه وأخته وابنه وبنته. فاذا أفلت هؤلاء الأقربين فان جاره ينوب عنه في الفسق بهم فالكل في الهم شرقي غير مستورد وموروث غير مستولد فلا وجه لاقامة مناحة ملفقة تلقي باللوم فيه على شعوب ماوراء جبل قاف وجزائر واق الواق..

كان مظهر في وفاة الكردي درويش مستوعب لحقائق الاجتماع يرتقي بالجذبة الصوفية تصفية لما قد يعلق بقعر كشكوله من قشيرة أخطاء الطريق. وهو لا يفتأ يلتقط حبا صفا ومسبلا اصفاك سقط من فزم أو زلق من يدٍ تعبانة فهو عاد من كل وجه ورافض من كل وجه في كفتي الايجاب والنفي لميزان دق نابضه قبولا ورفضا.

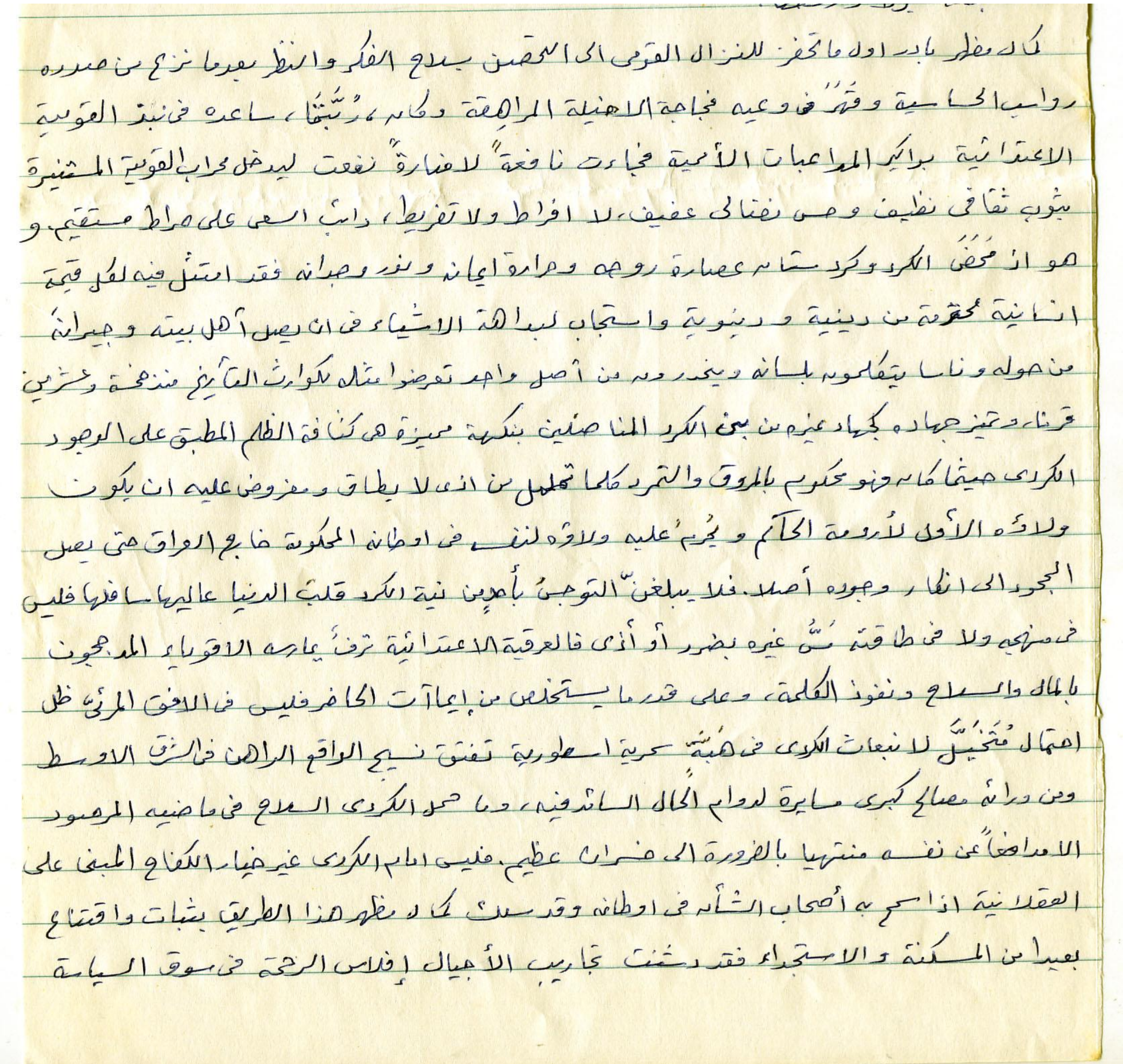

لكان مظهر بادر اول ما تحفز للنزال القومي الى التحصن بسلاح الفكر والنظر بعدما نزع من صدره رواسب الحماسية وقتها في وعيه مجابهة الاهلية المراهقة وكان ، رشيقا ، ساعده في نبذ القومية الاعتدائية بوائق المداعبات الأممية مجاورات نافعة" لافادة" نفعت ليدخل محراب القومية المستنيرة بثوب ثقافي نظيف وحس نضالي عفيف ، لا افراط ولا تفريط ، دائب السعي على صراط مستقيم ، و هو اذ محض الكرد وكردستانه عصارة روحه وحرارة ايمانه ونور وجدانه فقد امتثل فيه لكل قيمة انسانية محترمة من دينية ودنيوية واستجاب لبداهة الاشياء في ان يصل أهل بيته وجيرانه من حوله وناسا يتكلمون بلسانه وينحدرون من أصل واحد تعرضوا امثاله لكوارث التاريخ منذ خمسة وعشرين قرنا ، وتميز جهاده بجهاد غيره من بعض الكرد المناضلين بنكهة مميزة هي كثافة الظلم المطبق على الوجود الكردي حيثما كان ، فهو محكوم بالمروق والتمرد كلما تململ من اذى لا يطاق ومفروض عليه ان يكون ولاؤه الأول للأرومة الحاكم و يُحرَّم عليه ولاؤه لنفسه في اوطانه المحكومة خارج العراق حتى يصل الجحود الى انكار وجوده أصلا . فلا يبلغنَّ التوجس بأحدٍ من نية الكرد قلب الدنيا عاليها سافلها فليس في منهجه ولا في طاقته مسّ غيره بضرر أو أذى فالعرقية الاعتدائية ترفٌ يمارسه الاقوياء المدججون بالمال والسلاح ونفوذ الكلمة ، وعلى قدر ما يستخلص من ايحاءات الحاضر فليس في الافق المرئي ظل احتمال مُتخيَّل لانبعاث الكردي في هبّة سحرية اسطورية تفتق نسيج الواقع الراهن في الشرق الاوسط ومن ورائه مصالح كبرى مسايرة لدوام الحال السائد فيه ، وما حمل الكردي السلاح في ماضيه المرصود الا مدافعا" عن نفسه منتهيا بالضرورة الى خسران عظيم . فليس امام الكردي غير خيار الكفاح المبني على العقلانية اذا سمح به أصحاب الشأن في اوطانه وقد سلك كمال مظهر هذا الطريق بثبات واقتناع بعيدا من المسكنة والاستجداء فقد دشنت تجاريب الأجيال إفلاس الرحمة في سوق السياسة

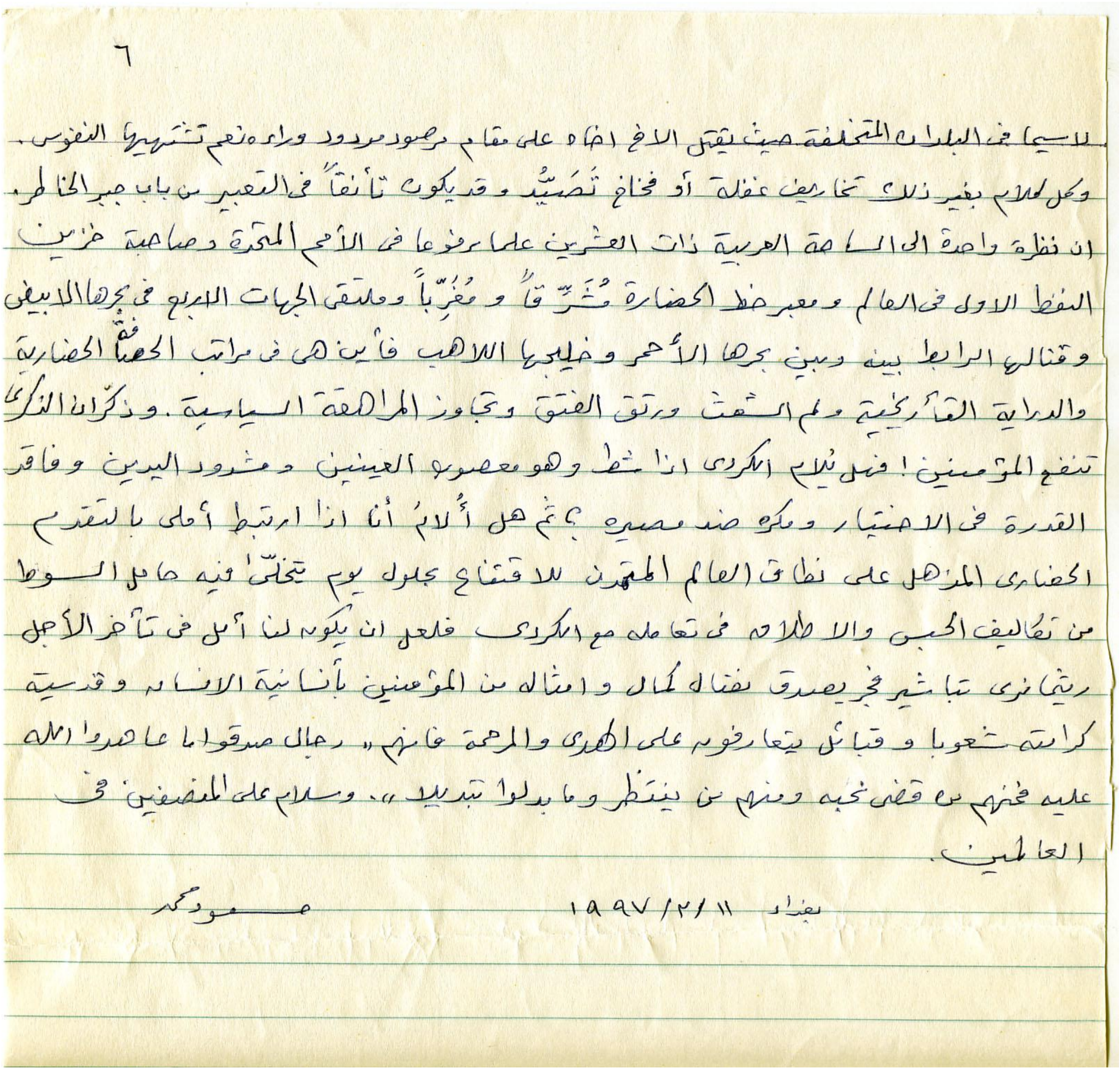

٦

لاسيما في البلدان المتخلفة حيث يقتل الاخ اخاه على مقام مرصود مردود وراءه نعم تشتهيها النفوس.
وكل كلام بغير ذلك تخاريف غفلة أو فخاخ تَصَيُّد وقد يكون تأنقاً في التعبير من باب جبر الخاطر.
ان نظرة واحدة الى الساحة العربية ذات العشرين علما مرفوعا في الأمم المتحدة وصاحبة خزين
النفط الاول في العالم ومعبر خط الحضارة شَرْقاً ومغرِباً وملتقى الجهات الاربع في بحرها الابيض
وقنالها الرابط بينه وبين بحرها الأحمر وخليجها اللاهب فأين هي في مراتب الحصافة الحضارية
والدراية التاريخية ولم الشعث ورتق الفتق وتجاوز المراهقة السياسية. وذكّر ان الذكرى
تنفع المؤمنين! فهل يلام الكردي اذا شطّ وهو معصوب العينين ومشدود اليدين وفاقد
القدرة في الاختيار ومكره ضد مصيره؟ ثم هل أُلامُ أنا اذا ارتبط أملي بالتقدم
الحضاري المؤهل على نطاق العالم المتمدن للاقتناع بحلول يوم يتخلّى فيه حامل السوط
من تكاليف الحبس والاطلاق في تعامله مع الكردي فلعل ان يكون لنا أمل في تأخر الأجل
ريثما نرى تباشير فجر يصدق نضال كمال وامثاله من المؤمنين بانسانية الانسان وقدسية
كرامته شعوبا وقبائل يتعارفون على الهدى والمرحمة فانهم «رجال صدقوا ما عاهدوا الله
عليه فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر وما بدلوا تبديلا». وسلام على المنصفين في
العالمين.

بغداد ١٩٩٧/٢/١١ مسعود محمد